دراسات أدبية

موقف النقاد من الشعر الجاهلي

للاستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

بقية ما نشر في العدد الماضي

وفي القرن الثالث أيضا كثرت مؤلفات النقاد في الشعر والشعراء ؛ وكتاب ابن سلام « طبقات الشعر » مشهور وهو أول عمل أدبي منظم في النقد ، وقد قسم الجاهليين عشر طبقات وأضاف إليهم شعراء المراثي وشعراء المدن العربية ، ووضع في الطبقة الأولى امرأ القيس وزهيراً والأعشى والنابغة ؛ ولم يسبقه إلى هذا التقسيم الفني للشعراء الجاهليين وطبقاتهم الأدبية إلا أبو عبيدة الذي قسم الجاهليين ثلاث طبقات ووضع في الأولى امرأ القيس والنابغة وزهيراً ، وفي الثانية الأعشى وطرفة ولبيداً . ويذكر ابن سلام في طبقاته الشعراء الاسلاميين ويقسمهم طبقات عشرا أيضا ولا يذكر أحدا من الشعراء المحدثين ؛ بعكس ابن قتيبة الذي ألف كتابه « الشعر والشعراء » وذكر فيه الكثير من الشعراء المحدثين الذين عاشوا قبيل منتصف القرن الثالث ؛ وهذا يدل على أن ابن قتيبة كان أكثر تقديرا للشعر الجيد وحده بصرف النظر عن ثله وزمنه . وهذا يذكرنا بجمع المفضل وأبي زيد الانصاري للشعر العربي ؛ فقد جمع المفضل في كتابه مختارات للشعراء الجاهليين وللقليل جدا من الشعراء المخضرمين . أما أبو زيد الأنصاري في كتابه الجمهرة مختارات للجاهليين والمخضرمين والاسلاميين . ثم ألف ابن المعتز أيضا كتابا في طبقات الشعراء المحدثين طبع أوربا ويسير فيه على نهج ابن قتيبة من حيث ذكر الشاعر وحياته ومذهبه الفني في شعره ونماذج من مختارات شعره ، وأول ترجمة له في الكتاب هي ترجمة بشار م ١٦٧ هـ ، وأقصى شاعر ترجم له ابن المعتز هو : الناشيء م ٢٩٣ هـ ومحمد الشيرازي الذي يقول فيه المؤلف : وهو اليوم شاعر زماننا ، وجميع التراجم التي يحتوي عليها الكتاب والتي تبلغ أكثر من ١٣٠ ترجمة هي لشعراء عاشوا بين هذين التاريخين ، وهو أوفى كتاب في دراسة طبقة بشار وطبقة أبي نواس وطبقة أبي تمام والبحتري

والقرن الرابع الهجري كان أحفل قرن بالنقد والنقاد ، وظهرت فيه أصول كتب النقد الأدبي مثل : نقد الشعر لقدامة م ٣٢٧ هـ ، وأخبار أبي تمام للصولي م ٣٣٦ هـ ، والموازنة للآمدي م ٣٧١ هـ ، واعجاز القرآن للباقلاني م ٤٠٥ هـ ، والوساطة للجرجاني م ٣٩٢ هـ ؛ كما ظهر في القرن الخامس : ابن رشيق م ٤٥٦ صاحب العمدة ، وابن سنان الخفاجي م ٤٦٦ هـ صاحب سر الفصاحة ، وكتاب الأسرار والدلائل لعبد القاهر الجرجاني م ٤٧١ هـ

وكان النقاد في هذين القرنين يسيرون على نهج الجاحظ ، فلم يتعصبوا للشعر الجاهلي لتقدم زمنه ، ولم يميلوا على المحدثين لتأخر عصرهم ؛ بل حكموا الذوق وحده في كل شيء ؛ حتى انقد وقفوا معددين لأخطاء الجاهليين ، كما فعل الآمدي والجرجاني وابن رشيق وسواهم ، قال الآمدي في كتابه الموازنة (١) : « وما رأينا أحدا من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب » ؛ وقال صاحب الوساطة في أول كتابه : « ودونك هذه الدواوين الجاهلية والأسلامية ، فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أبيات لا يمكن لعائب القدح فيه إما في لفظه ونظمه أو ترتيبه وتقسيمه أو معناه ، أو إعرابه ، ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم ، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة مسترذلة ومردودة منفية ؛ لكن هذا الظن الجميل ، والاعتقاد الحسن ستر عليهم ، ونفى الظنة عنهم ، فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب ، وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام (٢) » ، ونو (٣ تصفحت

(١) ١٨ الموازنة ط بيروت (٢) ص ٣ و ٤ وساطه ط صبيح
(٣) ص ٧ المرجله

تصفحت ما تكلفه النحويون لهم من الاحتجاج ، وتبينت ما راموه فى ذلك من المرامى البعيدة ، وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة ، التى يشهد القلب أن المحرك لها والباعث عليها شدة إعظام المتقدم ، والكلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد وألفته النفس » ؛ وأرى الآمدى والجرجانى موقف بعض النقاد المتعصبين على المحدثين(١) كالأصمعى الذى أنشده إسحاق الموصلى :

هل إلى نظرة إليك سبيل ... فيروى الصدى ويشفى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندى ... وكثير ممن تحب القليل

فقال : لمن تنشدنى ؟ فقال : لبعض الأعراب ، فقال : هذا والله هو الديباج الخسروانى ، فقال إسحاق : إنهما لليلتهما . فقال الأصمعى : لاجرم والله أن أثر الصنعة والتكلف بين عليهما ؛ وكابن الأعرابى الذى (٢) أنشده بعض الناس شعرا وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجابا شديدا وكتبه فلما علم أنه لأبى نواس أنكره

ونقد الباقلانى فى إعجاز القرآن قصيدة امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

نقدا طويلا ، وهو أول نقد أدبى مفصل لقصيدة من الشعر العربى

٨ — وفى العصور الوسطى ضعفت الملكات وعقمت الأذواق وتعصب العلماء والأدباء للشعر القديم لقدمه ، فكانوا يحيطون الشعر الجاهلى بهالة من التقديس والجلالة ولا يردن أحداً أحسن مثل إحسان الجاهليين ولا أجاد إجادتهم ، ورأوهم معصومين من الخطأ والعيب والنقد ، واستمر هـذا المذهب سائدا حتى العصر الحديث

٩ — وفى العصر الحديث تفاوتت ثقافات الأدباء والنقاد . فوقف أولو الثقافات العربية الخالصة موقف الأعجاب والتقدير البعيد للشعر الجاهلى ، وهب جماعة من أولى الثقافات الأوربية يطعنون على الشعر الجاهلى ويرمونه حينا بالضعف والتفكك ، وحينا بأنه منتحل مختلق . ومن الحق أن بعض نقد هؤلاء كان عادلا منصفا ، وأما الكثير منه فكان مغالى فيه

عاب العقاد على الشعر الجاهلى أنه لا يصلح أن يكون نموذجا يقتدى به فى النظم لأنه فى الغالب أبيات مبعثرة تجمعها قافية واحدة يخرج فيها الشاعر من المعنى ثم يعود إليه ثم يخرج منه على غير وتيرة معروفة ولا ترتيب مقبول ، وأن فيه غير التفكك وضعف الصياغة كثيرا من العيوب العروضية والتكرير الساذج والاقتسار المكروه والتجوز المعيب الذى يؤخذ من روايته أن الشعر لم يكن فنا استقل بصناعه الخبيرون به ، وإنما كان ضربا من الكلام يقوله كل قائل ويروى المحكم منه وغير المحكم على السواء ( ) ، فجراه بعيبه بما بلى

١ — ضعف وحدة القصيدة ، ونحن فى الرد على هذه الفكرة نكتفى بما بين الكلمتين : قال بولاك المستشرق الهولندى المشهور ، « وفى أحوال كثيرة يحتفظ الشاعر الجاهلى بوحدة الفكرة فى قصيدته بأن يجعل كل قسم من أقسامها خاصا بوصف مناظر وحوادث من حياة الشاعر نفسه أو الحياة العامة التى يحياها البدوى فى الصحراء ؛ وقال جميل صدقى الزهاوى الشاعر المجدد : « وهناك شىء يستحبه الذين تشبعت أدمغتهم بالأدب الغربى ، هو وجوب أن تكون القصيدة الواحدة خاصة بفكرة واحدة ، أو وصفا لشىء واحد ، من غير خروج إلى غير الموضوع ، ولو كان فى فصل منعزل عن الأول ، وهذا ليس من الشعر فى أصله ، بل هو تابع للأذواق ولطريقة الشاعر فى شعره ، ولا ينوع الشاعر البارز فى العربية الموضوع فى كل قصيدة ، فكثيرا ما يحصر شعره فى القصيدة الواحدة فى موضوع واحد ، وإذا نوع الموضوع فهو يخرج إلى الثانى بمناسبة وبعد فصله عن الأول ، مريدا بذلك أن تكون قصيدته كالروضة الغناء محتوية على مختلف الأزهار ، وهذا أقرب إلى الطبيعة ، وليس فيه مايؤخذ عليه غير كونه ينافى مايفعله شعراء الغرب ، ولكل أمة سياق وتزعة ليست لأختها ، وأعتقد أن الكتاب الذين يزرون بشعر شعرائنا على الاطلاق لو أتيح لهم أن يكونوا شعراء لما خرجوا كثيرا عن النهج الذى يمشى عليه البارزون من هؤلاء ، والسبب هو ما قدمته من اختلاف ألوان الشعور عندنا عن ألوانه عند الغربيين ، من جهة وقيد القافية وإعرابها عندنا وفقد انه عندهم من جهة أخرى ، وقد هم كثير من الشعراء المتضلعين من العلوم العصرية بتقليد الغرب فى شعره ، فلم يكن ما أتوا به غربيا ولا شرقيا ، ولم يوفقوا

(١) ١٠ الموازنة ، ٥٠ وساطة (٢) ٢٨٩ — ١ زهر الآداب

(١) مراجعات للعقاد .

(٢) من مقال له نشر بالسياسة الأسبوعية عام ١٩٢٧ .

إلا فى ألوان من الشعور هى مشتركة بين الأمم جميعها. ومهما تمرد الشاعر الكبير على الأساليب والتصورات فى أمته فهو لا يستطيع أن يطفر مرة واحدة إلى تصورات وأساليب تخالف ما ألفه شعبه فيقطع الوشائج القوية التى تربط الحال بالماضى .

٢ — ويعيب النقاد الشعر الجاهلى ثانيا بأنه لم يكن فنا استقل به صناعه المجيدون به ، وذلك لا يسير مع الحقيقة والواقع، [illegible] يقول الدكتور طه حسين بك فى كتابه الأدب الجاهلى ( ) : وأما مضر فكان لها فى الجاهلية شعراء يتخذون الشعر فنا يمثلون به نهضة فنية عقلية فى هذا الأقليم من جزيرة العرب :

٣ — ويعيبه ثالثا بهلهلة صياغته وما فيه من عيوب عروضية وتكرير ساذج ونحو معيب . وفى هذا مقالة

وكانت ثورة النقد الكبرى بين الدكتور طه حسين بك وبعض النقاد والباحثين حول الشعر الجاهلى ذات صدى بعيد فى دراسات الشعر الجاهلى . ويؤيد الدكتور هذا الانتحال بأدلة كثيرة : فضلا عن أنه لا يمثل اللغة الجاهلية نفسها لاختلاف اللغة الحميرية عن اللغة العدنانية الفصحى مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الاسلام مما يدل على انتحال هذا الشعر على هؤلاء القحطانيين ، فوق أن الشعر الجاهلى لا يصور اختلاف اللهجات العدنانية التى لا شك فيه .

ويبنى الدكتور على انتحال الشعر الجاهلى رفضه الشعر المنسوب إلى شعراء من اليمن ، لأن لليمن لغة تخالف لغة قريش وهجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا ، وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ، ثانيا ، وشعراء المدينة ليسوا يمنيين بل هم مضريون ، ويرى أنه ليس لليمن فى الجاهلية شعراء . أما ربيعة من عدنان وكانت تسكن فى الشمال فيرى الدكتور أن شعرها دون شعر المضريين لأنها لم تكن تتكلم لغة قريش وأما مضر فكان لها شعراء يتخذون الشعر فنا . ثم درس بعض أعلام الشعراء الجاهليين على ضوء نظريته فى انتحال الشعر ، ووضع مقاييس لتمييز المنحول من الشعر الجاهلى ، وجعل الشعر أصلا فى مضر ثم انتقل منها إلى ربيعة فاليمن فالى الموالى ، وبذلك يعكس نظرية انتقال الشعر الجاهلى فى القبائل ، وهى نظرية معروفة ذهب إليها علماء الأدب المتقدمون .

وهذه الآراء والتعليق عليها موضوع بحث آخر ودراسة جديدة إن شاء الله . وقد ذكرت فى كتابى « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى » كثيرا من المناقشة الأدبية للفكرة نفسها بتفصيل .

وسيلى هذا البحث بحث آخر مكمل له عنوانه « دفاع عن الشعر الجاهلى » نرجو أن يكون فيه مزيد من الشرح والتحليل والنقد لموقف النقاد فى الشعر الجاهلى وبالله التوفيق .

محمد عبد المنعم خفاجى
مدرس فى كلية اللغة العربية

(١) وما بعدها

مجلس مديرية الفيوم

يقبل مجلس مديرية الفيوم عطاءات لغاية الساعة ١٢ من ظهر يوم الاثنين ٣ يولية سنة ١٩٥٠ عن توريد (١) الكتب والأدوات المدرسية اللازمة لمعاهده (٢) أقمشة الكساوى وخامات أشغال الابرة ويقبل عطاءات لغاية الساعة ١٢ من ظهر يوم الاثنين ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٠ عن توريد (١) خامات قسم الأحذية والسروجية (٢) خامات قسم القش والخيزران (٣) العدد والآلات الموسيقية ويمكن الحصول على كل مناقصة على حدة مقابل مائة مليم وتقدم الطلبات على ورقة دمغه فئة ثلاثين مليما ٥١٢٩